KORPUS ANALISIS

ASAH {1}

في يدي الآن هذا القلم الذي أكتب به،(1) وهو سنّ قائمة في نصاب من الزجاج أحمرَ صافٍ يشفّ عن داخله؛(2) فإذا طاف به النور أشعّ فيه وانصبغ بلونه فرمى على إصبعي ظلاً مجروحا يريك الجلدَ كأنما جرحُه من فوقه لا من تحته.(3) فإذا راوحته يدي وقلّبته أناملي رأيت له بريقا يستطير فيه كأنه شعلة من اللهب حبستْها معجزة في عود من الثلج. (4) فإذا استعرضتُه بين العين وبين الضوء الساطع، رأيت منه ياقوتة حمراءَ قد افترّ فيها نبغٌ كالفم الحلو يتنفس على قلبي الحزين بابتسامات تلْتي إليّ وفيها ألوانُ شفاهها الوردية.(5)

ASAH {2}

فإني لجالس ذات مرة في جوف الليل أكتب على ضوء الكهرباء(1) إذ طارت فيه نظرة من نظراتي، وكان بإزاء الشعيلة(2) فرأيت في خلاله من انعكاس الضوء شُميسة صغيرة لم أر قطّ أحسن منها حسنا، كأنها سبيكة تحترق وتتناثر ضبابا من بخار الذهب؛(3) فمددتُ النظر فإذا أنا بتلك الشُّميسة كأنها إحدى عذارى الجنة انغمست في غدير صافٍ فحوّلها

جمالها فانقلب من معنى الماء إلى معاني الجمال المستحي فاحمرّ كأنه لـــون خدّ موردّا!(4)

ASAH {3}

رأيت وجه فتاة عرفتُها قديما في ربوة من لبنان ينتهي الوصفُ إلى جمالها ثمّ يقف؛(1) كنت أرى الشمس كأنما تجري في شعرها ذهبـــا، وتتوقّـــد في خدّها ياقوتا، وتسطع في ثغرها لؤلؤة(2) وكنت أرى الورد الذي يزرعـــه الناس في رياضهم،(3) فإذا تأملتُ شفتيها رأيتُ ورقتين من الورد الـــذي يزرعه الله في جنته؛(4) وكانت لها حينا خفةُ العصفور وحينـــا كبريـــاء الطاووس ودائما وداعة الحمامة المستأنسة؛(5) وكانت روحها عَطِرة تنفح نفح المسك إذا تشامّت الأرواح الغزلة بالحاسة الشعرية التي فيها!(6) وكنت إذا رأيتها بجملة النظر من بعيد صوّر لها قلبي من الحسن والهوى ما يموت فيه موتةً ثم يحيا؛(7) فإذا جالستُها وأثبتُّ النظر فيـــها رأيتُـــها في التفصيل شيئا بعد شيء بعد شيء، كما أنظر نجما بعد نجم بعـــد نجـــم: كلها شعاع وكلها نور وكلها حسن!(8)

ASAH {4}

ليس بجمال إلا ذلك الروح الذي يرفع النفس إلى أفق الحقيقة الجميلة(1) ثم ينفخ فيها مثل القوّة التي يطير ويدعها بعد ذلك تترامى بين أفق إلى أفق؛(2) فإما انتهى المحبُّ إلى حيث يصير هو في نفسه حقيقة من الحقائق، (3) وإما انكفأ من أعاليه وبه ما بالطيارة الهاوية: رفعت راكبها إلى حيث ترمي به ميتا أو كالمغشيّ عليه من مسِّ الموت!(4) والذين ينكرون أن الجمال يقتل أحيانا أو يجعل الحياة كالقتل، ثم يدّعون مع ذلك هوى وحبّا، إنما هم أولئك الذين يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التي يحبون بها الذهب والفضة وورق البنك ... (5)

ASAH {5}

الحب بعض الإيمان:(1) وكما أن الطريق إلى الجنة من الإيمان بكل قوى النفس؛ فإن الطريق إلى الحب من قوة لا تنقص عن الإيمان إلا قليلا؛(2) والخطوة التي تقطع مسافة قصيرة إلى القلب، تقطع مسافة طويلة إلى السماء!(3) وكما ينشأ الكفر أحيانا من عمل العقل الإنساني إذا هو تحكم في الدين، يأتي البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب. (4) وتُرى ما هذا الشَّبه بين المرأة وبين السماء ؟(5) أكانت المرأة في أصل الخلقة مادة سماءٍ بدأتْ تتخلق في الغيب فحبسها الله في ضلع الرجل عقابا لها،(6) ثم عاقبها الثانيةَ فأخرجها للرجل تنظر إليه كما ينظر

السجين إلى سجنه ... (7) ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرتين؛ لتتعلم هي بطبعها كيف تتجنّى على الرجل وتعاقبه مرارا لا تُعدُّ ؟(8)

ASAH {6}

لقد عرفنا أن في السماء جنة وناراً،(1) وأقسم لو صُغّرتْ الجنة وجُعلتْ أرضية تلائم حياة رجل من الناس، ثم عُجّلتْ له في هذه الحياة الدنيا، لما كانت بمتاعها ولذاتها وفنون الجمال فيها إلا المرأة التي يحبها!...(2) أما الجحيم فلا أراني في حاجة إلى برهان على أنها صُغرتْ وتحزأت واندفقت على الأرض شُعَلا في أسماء من أسماء النساء ... !(3) لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة، بل لا أدري كيف أفهمها؛(4) فمن حيثما نظرتُ إليها لا أراها تبتدئ إلا من فوق العقل،(5) فأنظر إليها ساكتاً على أنها هي لا تنظر فيّ إلا متكلمة.(6)

ASAH {7}

رجل طوال إذا انتصب والناس وقوف حوله رأيتُهم معه أشبه بهم قعودا، مما يفرعهم من طوله وامتداد قامته، بجدول الذراعين مشبوح العظام(1) قد تباعد منكباه وترامى بينهما صدر مصَفّح كل ثدي من ثدييه بجمع قوة أسد.(2) وهو في توثيق جسمه وتفرع بعضه من بعض كأنه شجرة

رجال:(3) كل فرع منها بطل منكر؛(4) وهو في إحكام تركيبه واندماج بعضه في بعض كأنه تمثال أُفرغ من حديد فتوزّعت فيه الكتل هنا وهنا،(5) وكل ما فيه من الإجمال والتفصيل أنه جسم آدمي يمثل للأعين ناموس "بقاء الأنسب".(6)

***ASAH* {8}**

وجاءوا به والناس متقصّفون عليه من ازدحامهم ينثني بعضهم على بعض لينظروا إلى الرجل الكامل، بل الذي نقص حين كمُل،(1) وهو مطل عليهم ... كأنه عبارة مبهمة في صحيفة! وكأنهم من حوله شروح وتفاسير رُقمت على حاشيتها بخط دقيق.(2) وقف كالشيء الغامض يروعهم بغموضه أضعاف ما يعجبهم بروعته!(3) وكانوا كالشعاع: خيطا يظهر من خيط؛ وكان كالظلمة: نسيجا من قطعة واحدة؛(4) وأحسبه لو صاح بهم صيحة البأس لسقطت قلوبهم من علائقها سقوط أوراق الشجر في قاصف من الريح.(5) وكأن ما بينهم وبينه في الروعة والقوة كالذي تقيسه بين ألف متر انخسفت تحت الأرض وألف متر انبثقت فوقها؛(6) فالبعد بين طرفيهما مضاعف كلٌّ منهما؛(7) وما زالت سنة الله أن تتضاعف الفروق دائما بين الأشياء التي لا يمكن أن تتفق، حتى لا يمكن أبدا أن تتفق!(8)

ASAH {9}

وكان الرجل يظهر كأنما هو لا يمسكه الحديد الذي يَعَضّ على يديه؛ بل ذنبه الذي يعضّ على قلبه:(1) ولعله قُتل ضعيفا مظلوما فتحوّل ضعف القتيل وذلته ومسكنته إلى أرواح منتقمة من كبريائه، تدسّ في ضميره عنصرَ الجبن البغيض إليه، وتربط الروحَ الميتة إلى روحه؛(2) فلا يترع ظلمتها عن قلبه كل ما في النهار من الضوء؛ ولا يجد النور إلا في الإقوار والندم فيسكن إليهما.(3) وتبيَّنتُه فرأيتُه ساكنا سكون الاستهزاء، كأنه على ثقة مما خفي عنه تشبه ثقته بما وضح له؛ أو هو لتعاسته أخفق أكثر مما فاز.(4) والإنسان متى كثر إخفاقه صارت الخيبة في الأعمال هي الخطة التي يبني عليها؛ أو لا هذه ولا تلك، ولكنها الشجاعة تجعل المطمئن إلى غاية الحياة لا يبالي بكل وسائل هذه الغاية المحتومة!(5)

ASAH {10}

تُرى لو سألنا الوحش حين يفترس إنسانا:(1) ماذا وقع في نفسك منه حتى ثرتَ به وعدوتَ عليه ؟(2) أكان يقول – لو أنطقه الله – إلا أنه أبصر في هذا المخلوق وحشا ماكرا خبيثا إن لا يكن في دقّة ناب الثعبان فهو في خطر سمّه؛(3) وإنه لو رأى عليه سمْت إنسان وأبصر له نظرة إنسان وأحسّ منه قلب إنسان للجأ من وحشيته إلى الإنسانية التي فيه؛(4)

إذ الإنسانية هي حرم الأمن الإلهي الذي توضع عنده كل الأسلحة، حتى أسلحة الوحوش؛(5) وإذ الإنسان هو محرابها الذي تُصرع عنده كل القوى، حتى قوى الطبيعة.(6)

ASAH {11}

كان السجين في بَهْو المحكمة،(1) فصعد به الجند إلى غرفة "قاضي الإحالة" (2) ووقفوه ساعة على مَطَلٍ بين يديه فناء واسع أسفل منه.(3) فتحوّل الناس إلى هذا الفناء وتحوّلتُ معهم،(4) وكان البطل يلوح كطرف المئذنة؛(5) فما هو إلا أن أدار عينيه في الناس حتى استقر بهما على ناحية، فنظرتُ حيث نظر فإذا داءُ قلبه وقلب كل من رأى ... (6) ست نساء وفتى وطفلان ورضيع؛(7) فأما واحدة فأمّه وأما الثانية فزوجه، والباقيات أخواته، والفتى فرع أبيه ثم الطفلان والرضيع أولاده،(8) وقد جاءوا يودّعونه ويستودعونه؛ وحسبوا أن ليس بين رَحلهم وبين الموت إلا هذا القاضي الذي مَثل ببابه،(9) فطرح الموت ظلّ فكره على وجوههم ، وأخذ الرعب مأخذه فيهم؛(10) فما كانوا إلا كما يجتمع أهل الميت حول الميت.(11)

ASAH {12}

رأيتُ أمّه المفجوعة جالسة لا تحملها رِجلاها، وعلى صدرها ذلك الرضيع تضمه كأنه قطعة من قلبها رجعت إليه،(1) وتشدّ عليه بيديها شَدَّة الجزع والحنان كما لو كانت تحسبه صلة بينها وبين ابنها،(2) تنقل هذه الشدة بعينها إليه كما تنقل الكهرباءُ حركة المتحرّك،(3) وقد انطلقت دموعها، وفي كل نظرة إلى نَكْبة وحيدها مادة جديدة للبكاء! (4) وهي تنحني على قلبها حتى يداني وجهها الأرض، كأنها شعرت به ينكسر فمالت ليلتئم صدع منه على صدع ثم تعود فتعتدل فيكاد ينشقّ قلبها فتضغطه بانحناءة أخرى؛(5) وهي في كل ذلك مرسلة عينيها ممطر مطراً؛(6) وكانت حين تنكف دمعها وتنحّيه عن خدّيها، يتساقط من فروج أصابعها كأنه عدد أيام شقائها!(7)

ASAH {13}

وأما زوجة الرجل – وهي شابة جزلة الخلق ناضرة الصِّبا تركها الحزن كالمرأة المهمّلة: تدل أنوار بريقها على مواضع الصداء منها – فكانت واقفة تحمل على رأسها بُرمَةً أعدت فيها ما تعرف أن سيدها يشتهيه من طعامه،(1) كأنها تريد أن تجعل من هذا الطعام الذي يحبه رسالة من الحب بين نفسها ونفسه ترسلها إليه في سجنه! ... (2) ولما استقرّت عينه

عليها، أرسلت كل عواطفها في مجاري دمعها،(3) وقد أيقنت أنه قُطع بها دون عمادها وزوجها ووالد ابنها وكنزها الذهبي الذي لا تملك غيره؛(4) فكانت تبكي لكل معنى من هذه المعاني بكاءً بعينه،(5) وتبكي على قدر وفائها الذي لا حدّ له؛ وحبها الذي لا صبرَ معه، ومصيبتها التي لا سبب فيها من أسباب العَزَاء؛(6) وكل نظراتها كانت تقول لزوجها: لك ما أبكي.(7)

ASAH {14}

إنما يمسك الإنسان قوّتان:(1) قدرة يمضي بها فيدركَ فيطمئن، أو صبر يقعد به فيعجز فيطمئن؛(2) ولكنه متى امتُحن بشيء لا يقدر عليه وهو مع ذلك لا يصبر عنه،(3) فقد وضعه الله من ثَمَّةَ في حالة لا إنسانية ولا وحشية ولا دونهما ولا فوقهما؛(4) إذ يسلّط عليه كل القُوى التي في داخله تدفعه بأشد العنف إلى القوى المحيطة به، ويغري المحيطة به ترميه إلى التي في داخله؛(5) فما إن يزال مرتطما بين هذه وتلك وكأنه لشدّة وقعهما يُحطّم تحطيما بين مطرقتين!(6)

ASAH {15}

أجرم السجين فأخذ بذنبه،(1) فما ذنوب هؤلاء جميعا ؟(2) أهي إحدى الحقائق العليا الغامضة التي من أجل غموضها واستبهام حكمتها(3) يقول الحائرون: "كلّ شيء هو كل شيء!" (4) ويقول المنكرون: " لا شيءَ في كل شيء!" (5) ويقول المؤمنون : "كل شيء فيه شيء" ؟(6) أم هي الحقيقة السهلة الواضحة من كل جهاتها وإن أصبح الناس لا يفهمونها(7) إذ لا تحتاج إلى فهم وإنما هم موكلون بما خفي ودقّ، كدأب هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمر في دقيق المباحث وعويص التراكيب(8) ثم لا ينتهون من نتائجها إلا إلى النواميس المكشوفة انكشاف النور لكل ذي عين تبصر!(9) أهي الحقيقة السهلة التي تجزأت من أجلها أية الله،(10) فيقول المنكرون : "لا علم!" (11) ويقول الحائرون: "لا علم لنا!" (12) ويقول المؤمنون: "لا علم لنا إلا ما علّمْتنا!".(13)

ASAH {16}

كانت المرأة غريقة في يأسها وكان شاطئ الأمل يفرّ أمام عينيها فرارا لأن بينها وبينه موجةَ دمعها.(1) وقد صدع الحب في قلبها صدعا ليغرز فيه الشوكة المستحِدَّة من ألم الفراق لمن تحبّه؛(2) تلك الشوكة التي ما نفذتْ

قلبا فاستقرّتْ فيه إلا جعلتْ الحياة كلها معاني شائكة حتى تُحطَم أو تُنتَزَع.(3) امرأة والهة، فيها نفسها المعذبة، وفي نفسها رجلها المعذّب، وبين هذين طفلها اليتيم الذي يقتضيها أن تظلّ حانية عليه حنوّ أبوين؛(4) فهي تجمع على قلبها عذاب ثلاثة قلوب، وتتألم بنفسها الواحدة ألم الرثاء لزوجها الذي نزلتْ به العقوبة في جسمه وروحه،(5) وألم الإشفاق على بجدها الذي نُصب على أعين الشامتين في موضع الذّلة،(6) وألم الرحمة لطفلها الذي بلغ سنّ الهمّ وهو لا يزال في الثدي،(7) وألم اللوعة لحياتها التي لم تعد الأيام تناجيها بغير لغة الدمع،(8) وألم الأسى على شبابها الذي تساقطت آماله كما تحطّ الشجرة الخضراء أوراقها لتجفّ!(9)

ASAH {17}

في الحب يتعلّم القلب كيف يتألم بالمعاني التي يجرّدها من أشخاصها المحبوبة وكانت كامنةً فيهم،(1) وبالفراق يتعلم القلب كيف يتوجّع بالمعاني التي يجردها هو من نفسه وكانت كامنة فيه.(2) فترى العمر يتسلل يوما فيوما ولا نشعر به،(3) ولكن متى فارقنا من نحبهم نبّه القلبُ فينا بغتةً معنى الزمن الراحل،(4) فكان من الفراق على نفوسنا انفجار كتطاير عدة سنين من الحياة.(5) وترى العمرَ يمتلئ شيئا فشيئا ولا نُحس الزيادةَ كيف تزيد:(6) فإذا فارقنا من نحبهم نبّه القلب فينا معنى الفراغ؛(7) فكان من

الفراق على أكبادنا ظمأ كظمإ السقاء الذي فرغ ماؤه فجـــف وكـــان الفراق جفافه.(8) ألا يا طائر الحب، إن لك إذا طرت جنـــاحين؛ فمـــا أقرب من هو على جناح الفراق ممن هو على جناح الهجر.(9)

ASAH {18}

كان صاحبنا فتى تلمع عليه غُرّةُ الشباب،(1) وقد رقّ حتى كاد يخـــالط حدَّ الأنوثة، ولان حتى قارب أن يفوت معنى الرجولة، وظَـــرُفَ حـــتى أوشك أن يكون إنسانا تتفتح في روحه معاني الزهـــر؛(2) ولكنـــك إذا كنتَ رجلا صحيحا أمْرَرْتَه على عينيك كما تُمرّ كتابا لا تريد أن تقرأه! (3) فقد تمدّن في أوربا ولبث عن قومه ما شاء الله(4) ثم رجع إليهم كـأن أمه لم تلدْه وكأن أباه جدّه الأعلى ... (5) فبينه وبين أبيه هـــذا بضعـــة أجداد منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو (الهر ...)(6) وأصبح يحـس أن كل شيء في هذا الاجتماع الشرقي مسلط على نفسه الرقيقة النحيلـة بالغِلْظَة والجفاء والعنت والأذى.(7) كأنه (رحمه الله ...) ابن الضَّبّـــاب، فلما برز إلى هذه الشمس وضحا في أشعتها الحامية جعـــل يـــذوب ويتبخّر ...!(8)

ASAH {19}

ذلك هو الرجل؛(1) أما صاحبته فامرأة فرنسية، جميلة الوجـــه في طلعـــة الصبح، شابة الجسم شباب الضُّحى، متلهبة الأنوثة كشعاع الظهيرة رقيقة الطبع رنة الأصيل، زاهية المنظر في مثل شفق المغرب من تأنقها،(2) ثم هي تنتهي من كل ذلك إلى مخبر أشد ظلمة من سواد الليل ... (3) ومن أيـــن اعتبرتها ألفيتها رذيلة مهذبة يترقرق فيها ماء العلم ويجول في حسنها شعاع الفلسفة، كأنها عين فاتنة تدور فيها دمعة دلال!(4) و لم أكد أراها حـــتى أخذني جمالها؛(5) فإن لها عينين رُكِّبتا تركيبا يجرّ المصائب على القلـــب، تلهبان أشعةً ضاحكة أو عابسة يُخلق منها للقلوب حوادث وتواريخ؛(6) وترمي بنظرات تُبرئ الصدور أو تمرضها؛ وتبسم بوجهها كله نوعا مـــن الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية في وجهها قُبلات؛(7) أمـــا افـــترار شفتيها فهو جمال على حدة يشبه نقل معاني الخمر من فمٍ إلى فم ... (8)

ASAH {20}

امرأة ساحرة لا أدري إن كانت بُنِيَتْ على السحر أو على الحب ولا إن كان هذا الحب قد خُلِق لعنة عليها أم هي خُلِقتْ لعنة عليه؛(1) والحـــب دائما بركةُ امرأةٍ ولعنة امرأة!(2) والتي تزرعه في كل مكان هي الـــتي لا تحصد منه شيئا، فإن نالها شيء منه كان تعبا عليها روحا لســـواها. (3)

وأشدّ ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة، اجتماع شهواتها في صوتها النَّدِي المستطرب المتحزن الذي لا يخلو أبدا من حرف تسمع فيه همس قبلة من قبلاتها!(4) بيد أني مع كل ذلك استعصمتُ بفلسفتي وحكمتي؛(5) فلم أرها إلا في مثل حريرة التفاحة إذا أفرط عليها النضج فابيضّت واحمرّت وفاحت ولمعت وإنّ العفن لبادٍ من تحتها يُحذّر منها وينذر؛(6) وفي مثل فروة الدبّ : استرسلت ولانت في نعومتها ولكن لا منفعة منها إلا بقتل لابسها وإزهاق الحيوان كله في سبيل الجمال الظاهر من جلده.(7)

ASAH {21}

ونظرتُ إليها نظرة تخطّتْ بها الشباب وأيامه فإذا هي بائسة أملق الدهر حسنها وكان ذهبا على جسمها و فضة،(1) وإذا هي عجوز هالكة قد انحنت تحت لعنات ماضيها وتركتها دنياها كالسجن المتهدّم:(2) لا يذكّر مع انتقاضه إلا بلصوصه ومجرميه وعقابهم وآثامهم،(3) وتشقى بمعانيه بعد الخراب حتى حجارته وحتى ترابه!... (4) وأبصرتُ في هذه الحسناء اللعوب التي تستوقدها الضحكة بعد الضحكة، تلك الهامدة المريضة التي تطفئها الحسرة بعد الحسرة؛(5) وسقطت الشجرة الخضراء النامية فإذا في مكانها جذع خشبي ملقى زهد فيه نور السماء وطين الأرض معا!(6)

ASAH {22}

وقلما لصق الشيطان بقلب ما لم تكن في هذا القلب مادة من اللـــذة أو الكآبة،(1) فكلتاهما كيمياء الخطيئة والمعصية والشك؛(2) ولرُبّ عـــابد زاهد طاحت به كآبته فقذفته إلى النار كما تقذف بالفـــاجر لذاتـــه،(3) فيلتقيان منها في غمرة واحدة وإن كانـــا في العمـــل علـــى طريقـــين متدابرين،(4) وما أشبه إسراف اللذة أن يكون الرجاء اليائس؛ فالمســـتهتر بهذه اللذة يغلو في استمتاعه غلوّ من ظلم نفسه لا يتحرّج ولا يتـــورّع. (5) وما أشبه إعنات الكآبة أن يكون اليأس الراجي؛ فالمبتلى بالكآبة يجفو عما عداها جفاء من ظلم نفسه لا يتسمّح ولا يـــترخص (6) والنفـــس الغالية التي جاوزت قدرها، كالنفس الجافية التي انحطت عن قدرهـــا: (7)كلتاهما على طرف يمين الشرّ وشماله.(8)

ASAH {23}

يحسب الناس أنه لا تفرط امرأة في الحب ما تفرط المرأة الساقطة؛(1) ومـا علموا أنها لا تجد الرجل فتجد الحب!(2) إنما الرجال في عين هذه المـــرأة رجال مصنوعون،(3) فهي معهم امرأة مصنوعة يملك كل رجل إغضابهـا لأن صناعتها إرضاء كل رجل؛(4) ولعل هذا من رحمة الله بها؛(5) فـــإن أكبر شقائها أن تجمع الأقدار بينها وبين رجل تحبه وتستهيم به، إذ تـــألم

لذلك ألما خاصا فيه تهكّم الرذيلة والفضيلة معا.(6) إن هذا الرجل هـــو البطل الفذّ الذي يكون في قدرته أن يرجع لها ذلك العالم الذي أطرحـــها ونبذها،(7) فهو عندها يغمر الناس أجمعين، ولكنها قلمـــا وجدتـــه إلا لتعرف به حقيقة عارها.(8) وإذا قدر للأعمى أن يبصر ساعة واحـــدة ثمّ يرتدّ إلى ظلامه، فما أبصر ولكن تضاعف له العمى!(9)

***ASAH* {24}**

والمنافق هو سياسي الحب والصداقة:(1) يضع المنفعة بين عينيه ثم تتـــوزّع على جوارحه كل أساليب الكلام والحركة والعاطفة،(2) فلا مخرج لـــك من عقدته إلا أن يعقد هو بأسلوب وتحلّ أنت بأسلوب آخر؛(3) وتـــرى صداقته تنتهي أكثر ما تنتهي إلى مثل المقاطعة الحربية بين فراعنة السياســة وشياطينها:(4) يرمي الداهية منهم داهية آخر "بإنذار نهائي" حاسم يحمل الزلازل في كلماته، وينصب للحساب ميزان الهوان والهلاك،(5) ثم يقـــول له في آخره: "وإني أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم احترامي الفـــائق"! ... (6) ولن تجد شرا من هذا الأسلوب ينتحله رجل، إلا الأســـلوب عينـــه تنتحله امرأة! ... (7)

ASAH {25}

والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيتُ كالمنافق رجلا، إلا ذلك الواقف يدير وجهه بين مرائي عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه؛(1) فله في كل واحدة وجه، ويتعدد الرجل وهو شيء واحد.(2) يخلق الله كل شيء ليكون شيئا على الأصل البيّن الذي خلق عليه، وللأمر الميسّر الذي خُلِقَ له، وهو صريح واضح من جهتيه؛(3) فالأشياء في الطبيعة هي ما ظهرت به مشيئة الله، تضر لأنها ضارّة، وتنفع لأنها نافعة؛(4) ولكن المنافق كأنما خفيت مشيئة الله فيه،(5) فهو من ناحية الإنسانية مخلوق للنفع فضرّ، ومن جهة الحيوانية خُلِقَ للضرّ فنفع وفي الرذيلة خُلِقَ تلوينا للرذيلة، وعند نفسه خلق لأنه خلق! ... (6) فأنت تعرفه من جهة على قدر ما تنكره من الأخرى ولو كانت الجهتان متقابلتين؛(7) فهو دائما في نفاقه مختلف على السر والعلانية، وعلى المذهب والغاية، وعلى المدخل والمخرج، وعلى القول والعمل؛ ومختلف حتى في كونه مختلفا أو مستقيما.(8)

ASAH {26}

ولعل هذا النفاق هو أصغر رذائل الصغار وأكبر رذائل الكبار؛ لأن للحاجة في أولئك شِرعة ومنهاجا، وللضرورة أحكاما وقانونا؛(1) فالعامي حين ينافق لكبير من العظماء وينخضع له، إنما يوازن بين ما يعرفه

في ذات نفسه من الصغار والضعة، وبين ما يتوهم في صاحبه من الغلبة والقهر؛(2) فهو يترقّى إليه ليدنو منه، أو يترقّى إلى خديعته ليناله، أو يترقّى إلى كبريائه ليأمنه؛(3) ثم هو في كل ذلك نازل على حكم الحاجة والضرورة،(4) ولو اعتبرتَ الرجلين على الحقيقة ووزنتَهما في ميزان الأسباب، لرأيتَ المنافق منهما مَن لم ينافق...، لأن ما لا يُخاض إليه إلا في الوحل،(5) لا سبيل إليه إلا من الوحل،(6) وذلك العظيم رحل بناه النفاق فجعل باب نفسه عند قدميه.(7)

***ASAH* {27}**

فإذا أردتَ مفتاح هذا الباب فاخفض رأسك، ما من ذلك بدّ؛(1) غير أن نفاق الكبار للكبار شيء أكبر من النفاق في نفسه، وإنما سُمّي به تسامحا وتجوّزا، أو لأن اللغة تنافق هي أيضا... (2) وإلا فنفاقهم إن كان صدقا فأكبر فضيلته الكذب، وإن كان حقيقة فأعظم أدلتها الوهم، وإن كان علما فأكبر شرفه الجهل،(3) وهو التخشع ينقلب ضربا من العبلدة، وهو الوصف المزوّر يرجع نوعا من الخلق الذي لم يخلقه الله،(4) ثم هم طبقات ولكلٍّ نفاقها، ولا تدري أعلاها أسفلها أم أسفلها الأعلى، ولكن الشر دائما بالجملة،(5) وهم في الجملة يتخلقون ويتصنعون بما نعرف وما لا نعرف،(6) والكبراء هم موضع الفصل والوصل في بلاغة الاجتماع، وكل رأس منهم فهو كرأس الشارع:(7) لابد لك أن تلتوي أو تنحرف

إذا أنت بلغتَه،(8) فإما أرسلك في طريق خير أو شر،(9) وإذا كان هـــذا فإن كل واحد من كبار المنافقين ومنافقي الكبار هو على التحقيق نقطـــة انقلاب في أخلاق مَن حوله من الناس.(10)

ولا أعلم في هذه الدنيا شيئا لا يســـتطيع أن يوجـــد شـــيئا آخـــر؛ إذ الموجودات كلها مبنية على التحاليل والتركيب؛(1) وهذا النفاق في أصله مبني على الكذب السافل،(2) فإذا خرج منه شيء خرج منـــه الكـــذب العالي... (3) فترى السياسي يبالغ في النفاق ويزعم أنه يتكلـــم بلســـان المستقبل،(4) وينافق الأديب فيقال زخـــرف مـــن القـــول ومبالغـــة في البلاغة،(5) ونفاق ذي السلطة تواضُع، والنفاق من العالم مســـلك مـــن دقائق علم النفس، ومن الغني مال يجذب مالا، ومن السفيه اللئيـــم شـــر يطلب خيرا، (6) فإن هو كان من امرأة قيل حب أو مـــن طفـــل قيـــل تحبُّب... (7) وكما تُردّ المركبات كلها إلى أجزائها المفردة، فإن نفاق أهل الأرض جميعا يرجع إلى الطفل الصغير كما ينبثق النهر العظيم على مـــدّ مجراه من المنبع، وينتهي إلى مصبّه وقد جمع من أقذار طريقه على طول مـد يمتدا... (8) فنفاق الطفل يكون في أصله مكافأة عن محبة أهله وذويه،(9) ثم يكبر فيصبح تودّدا إليهم،(10) ثم يعظم فينقلب حيلة يحتالهـــا العقـــل

الصغير ليخضع بها العقل الكبير لهناته وهَيناته؛(11) ثم لا تزال تداخله بعد ذلك الأهواء والشهوات حتى ينعصر نفاقا فإذا هو ما هو.(12)

***ASAH* {29}**

وإني لأحسب أن النفاق هو بقية ما وقر في النفوس الجاهلة من عـــهدها الأول،(1) عهد التعبّد لكل ما يضرّ أو يُتوهّم فيه الضرر، والتقديس لكـل ما ينفع أو يُظنّ فيه النفع،(2) وتكون أرواح الأصنام والأوثان والعُجـول والبقر والحشرات والعواصف والصواعق وغيرها - مما كـــان يُخـص بالعبادة قديما – هي بأعيانها ما تتمثل فيه أرواح أولئك السادة الكـــبراء الذين يثقل ظلهم على الروح ثقل الضّباب ويتراكم على القلب تراكـــم السحاب،(3) ولا يرضون بابا من النفاق إلا أن يفضي إلى باب... (4) ثم تكون أفعال المنافقين في دهائهم ومصانعتهم وما تتروّح به أرواحهم، هـي في ذاتها بقايا تلك الرعدة والفزع والضراعة وتمريغ الوجوه والتمسح ومـا إليها مما صغرتْ به أحلام لتكبر أوهام،(5) وكان عبادة أجســـام لأرواح فصار عبادة أرواح لأجسام!(6)

أما إنه لا ينافق إلا الخبيث الذي يحاول أن يقتحم النفوس وهي غافلة عن أبوابها ومنافذها،(1) فنفاقه من التلصّص، وإلا الضعيف الذي يريد أن يقوي بضعفه فهو يحتال على أن يأخذ القوي من أضعف مكان فيه،(2) ونفاقه من المكر والخداع، وإلا الغاصب الذي يطمع أن يكون الشيء له وليس له،(3) ونفاقه من الظلم؛ وإلا القويّ متى أراد أن يسوق بقوته مساق الضعف لينال بها من غير أن يؤذي،(4) فنفاقه من الكبرياء؛(5) والخامسة أن روعة الحب في عاشق تنافق لروعة الحسن في معشوق...!(6) وكذلك لا يرضى عن النفاق ولا يُقرّه إلا جاهل اكتفى من العلم قبل أن يعلم ما هو العلم،(7) أو مستكبر عميت نفسه عما حولها وعما فوقها،(8) أو غبيّ يعرف عقله في وهمه ووهمه في عقله ولا يعرف عقول الناس،(9) أو ذو سلطان دنت محنته وأظلت ملكه النقمة فهي تسلك إليه سبلا مختلفة منها فساد الناس ومنها النفاق،(10) والخامسة أن يمتلئ نظر الجميلة رضا وسحرا حين يمتلئ فم المحب نفاقا في هواها...!(11)

ASAH {31}

وكان في تلك الساعة قد حطّ عليه الساقي حتى انتهى في سماواته الوهيـة إلى الأفق الزجاجي،(1) فعاد كلامه رنينا وطنطنة لا يفهمه إلا صـاحب الحانة وحده... (2) فلما دهته الداهية من كرب الخمـر، تخطـى حـدّ إنسانيته إلى البهيمية السائمة،(3) وما كاد يرتفع الستار الإنسـاني عـن مسرح أخلاقه، حتى رأيتني في رواية عجيبة يمثلها أربعة اجتمعت أرواحها في شخص واحد: سفيه، ومعتوه، وأحمق وأديب...!(4) وجعلتُ أتـأمل على يقين الخبرة وأشهد على حق النظر عجيبة هذا العقل الإنساني الـذي يسبح في الأفلاك، ويتطوح من شاطئ المجهول إلى شاطئ المعلوم بوثبـة أسرع من ضربة الجناح،(5) ثم هو مع ذلك يغرق في زجاجة خمـر،(6) وصرتُ أرى كيف يتحوّل النبوغ العقلي في بعض سـاعاته إلى صناعـة خسيسة، هي صناعة الأديب نفسه الشريفة بهيمة من البهائم،(7) وعلمتُ علم هؤلاء الأدباء الذين يحسبون الخمر توحي إليهم وما في ملء الـدنّ منها ما يعدل فائدة نقطة واحدة من قوة الإرادة.(8)

ASAH {32}

صغيران ضلا من أهلهما في هذا الليل،(1) يمشيان على حيد الطريـق في ذلة وانكسار،(2) وتحسب أقدامهما من البطء والتخاذل لا تمشـي بـل

تزحزح قليلا قليلا فكأنهما واقفان.(3) أكبرهما طفلة تعدّ عمرهـــا علـــى خمس أصابعها، والآخر طفل يبلغ ثلاث سنوات؛(4) ينحدران في أمـــواج الليل (5) وقد نزل بهما من الهم في البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمـــن تطوّح به الأقدار، إذا ركب البحر المظلم ليكشف عن أرض جديـــدة. (6)تتبين الخوف في عيونهما الصغيرة، وتراه يفيض منهما على ما حولهما، حتى ليحسب كلاهما أن المنازل عن يمينه وشماله أطفال مذعـــورة!... (7) ويتلفتان كما تتلفت الشاة الضالة من قطيعـــها : لا يتحـــرك في دمـــها بالغريزة إلا خوف الذئب!(8) ويتسحبان معا وراء الأشـــعة المنبثـــة في الطرق، كأن أضواء المصابيح هي طريق قلبيهما الصغيرين.(9)

ASAH {33}

رأيتُ الطفلة وقد تنبهتْ فيها لأخيها الصغير غريزة أمّ كاملة،(1) فـــهي تشدّ على يده بيديها معا كأنها مذ علمت أنها ضائعة تحاول أن يطمئـــن أخوها إلى أنه معها، ولن يضيع وإنه معها! فيا لرحمة الله!(2) وقد أسندت منكبه إلى صدرها وهي تمشي،(3) فلا أدري إن كان ذلك لتحمل عنـــه بعض تعبه فلا يتساقط؛ أو ليكون بها أكبر من جسمه الضئيل فلا يخـلف، أو لأنها حين لم تستطع أن تفهمه ما في قلبها بلغة اللسان أفاضته علـــى جسمه بلغة اللمس، أو لا هذا ولا ذاك،(4) إنما هي تستمدّ من رجولتـــه الصغيرة حماية لانوثتها بوحي الطبيعة التي رسخت فيها!(5) أما الطفـــل

فمستذلّ خاشع، لو ترجمت نظراته لكانت هذه عبارتها:(6) اللهم إن هذا العمر يوم بعد يوم، فأنقذنا من بلاء يومنا!(7) ولما وقفا بإزائنا كان هـــذا الصغير يقلب في وجوه الناس نظرات يتيمة ترتد على قلبه آلاما لا رحمـــة فيها؛(8) إذ يشهد وجوها كثيرة ليس لها ذلك الشكل الإنساني المحبـــوب الذي لا يعرفه الطفل من كل خلق الله إلا في اثنين أمّه وأبيه!(9)

***ASAH* {34}**

ونظر إليّ أنا أول رمقة، فذكرتُ أطفالي فتزلزل قلبي وأحسستُ أن دمـــي استحال إلى بارود وقع فيه الشرر!(1) وهؤلاء الأطفال الصغار هم إنسانية على حدة،(2) فكل أب هو أبو هذه الإنسانية كلها؛(3) ولن يطيق مـــن كان له طفل أن يرى صغيرا ضائعا في الطريق يستهدي الناس إلى أهلـــه ويبكي عليهم؛(4) أو طفلا جائعا يعرض على الناس وجهـــه المنكســـر ويستعطفهم بصوته المريض أن يطعموه؛(5) أو طفلا يتيما قد ثكل أهلـــه وضاق بقسوة أوليائه فانطرح في ناحية يبكي ويتفجع ويسأل من يعرفـون الموت:(6) أين أبي ؟ أين أمي ؟(7) هؤلاء جميعا ليس بينهم وبين قلـــوب الآباء والأمهات حجاب؛(8) إذ ليس فيهم من الناس إلا اضطرارهـــم إلى الناس؛(9) فهم الإنسانية الرضيعة التي خلق من أجلها القلب الإنســـاني في شكل ثدي.(10)

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب،(1) فهم منقسمون حين يولـــدون أسباطا أسباطا باختلاف الدم في كل أسرة،(2) وهم متفرقـــون حـــين ينشئون أفواجا أفواجا باختلاف الصحبة في كل فئة،(3) وهم متبـــاينون حين يتدفعون أحزابا أحزابا باختلاف الهوى في كل طائفـــة،(4) وهـــم متناكرون حين يتنازعون أمما أمما باختلاف المنفعة في كل أمة،(5) فتلـــك أربعة وجوه تلبسها الإنسانية فيهم،(6) ومن ثمّ قُضي على هذه الإنســانية المسكينة في الأرض أن تكون ثلاثة أرباعها عداوة،(7) كالأرض نفســها: ثلاثة أرباعها ماء ملح لا يُساغ ولا يشرب، وإنما منفعته للكون كلـــه في الجملة!... (8) ولعل شيخا من الشيوخ لو تدبّر حياته وأحصى أقدارهـــا وميز أنواع حوادثها وما أتى عليه فيها من أولها إلى آخرها، لرأى ثلاثـــة أرباعها ملحا أيضا...!(9) إنما الناس صور الفكر أو صور القلـــب،(10) فليس يأتي للوالدين أن يربّوا من أولادهم ناسا، بل أهواء ومطامع ينـــاقض بعضها بعضا؛(11) مطامع تتبع أسبابها، وأهواء ترجع إلى غرائزهـــا؛(12) فلو أن أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا ظـــاهر دنياهم حتى يكون سواء لا يخالف شيء منه على شيء؛ لبقي الانتقـــاض والاختلال في باطن الإنسان حتى لكأن بعض الدم يخلق غالبا على بعـــض الدم.(13) وإنه لا شيء في هذه الحياة إلا وقد خُلق معه ضده،(14) فـــإذا استقامت الأمور فلمن تكون الأضداد لعمري ؟(15)

الا ضل ضلالكم أيها الناس!(1) فلو أنهما يعرفان من أي شارع ومن أي والد لما كان منهما ما ترون،(2) على أن الطفلة لجلجتْ في بعض كلمات تشبه اضطراب قلبها، وكان الصواب كله ماثلا لعينيها مجتمعا في ذهنها،(3) فالبيت والشارع والأب والأم كل ذلك واضح في خيالها؛ ولكن الذي استبهم عليها هو تحديد نسبته إلى هذا الوجود الذي تراه كله بيوتا وشوارع ورجالا ونساء.(4) وإنما تحديد الشيء هو تعبير الطبيعة عنه،(5) وإنما تعيين نسبته من غيره هو تعبير الشيء نفسه عن خصائصه؛(6) فإذا أنتَ عرفتَ نسبتكَ من سواكَ، وحصرتَ هذه النسبة في حدودها وأسوارها، فقد أمنتَ الخطأ في سعادة نفسكَ، وأصبحتَ بتلك المعرفة أسعد إنسان.(7) ولكن من لكَ بهذه المعرفة وبهذا التحديد، وقلوب الناس كافة كأمواج البحر في البحر:(8) تظهر كل واحدة قائمة بنفسها في رأي العين وهي راجعة في جميعها إلى أصل واحد، هو هذا السيّال المتحرك الذي يتضرب بعضه في بعض ليوجد الأمواج ويفنيها.(9)

ASAH {37}

والطفل لا يعرف مستقبلا ولا ماضيا، وما هو إلا حاضره؛(1) فإن عييتَ بأمره فأوحدْه ما يلهو به، فهذه هي سعادة الطفولة؛(2) ولقد سرّهما من الأديب السكير الذي كان إلى جانبي أضعاف ما سرهما من الحلواء، بل كان زيادة في حلاوتها؛(3) فحسباه يتعمد بسطهما وإيناسهما بحركاته وبكلامه الذي يطنّ في السماوات الزجاجية؛ فكانا يضحكان منه،(4) وكلما تكلم أو أشار أو تحرّك أو أنكر عليهما، استخرج بذلك منهما مثل تغريد العصافير؛(5) فكانت كل الفائدة من سقوطه وضياع عقله أنه أضحك طفلين...!(6) وقدّرتُ في نفسي أنهما من هذا الشارع الذي نحن فيه، أو من فصيلته في الطرق التي تخالطه أو تقاربه؛(7) وقلتُ أن أهلهما على أثرهما؛ فجعلتُ أستأني وأنتظر؛(8) وبينما نحن على ذلك، إذ ارتفع سواد مقبل كأنه روح ليلة مظلمة تغشى الطريق؛(9) فتبينتُ فإذا امرأة تهفو كذات الجناحين، وكأنها تنساق بقوة تحترق في داخلها؛ ثم أخذتنا عيناها فإذا هي أمّ الطفلين.(10)

ASAH {38}

حب الأم في التسمية كالشجرة: تُغرس من عود ضعيف ثم لا تزال لها الفصول وآثارها،(1) ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها، حتى

تكتمل شجرة بعد أن تفني عداد أوراقها ليالي وأياما.(2) وحب العاشقين كالثمرة: ما أسرع ما تنبت وما أسرع ما تنضج وما أسرع ما تُقطف! (3) ولكنها تنسي الشفاه التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء في الشجرة القائمة.(4) لا لذة في الشجرة، ولكنها مع ذلك هي الباقية، وهي المنتجة؛(5) ولا بقاء للثمرة، ولكنها على ذلك هي الحلوة، وهي اللذيذة، وهي المنفردة باسمها.(6) وهكذا الرجل: أغواه الشيطان في السماء بثمرة فنسي الله حينا ويغويه الحب في الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحيانا!(7)

ASAH {39}

كان "الشيخ علي" يشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها، على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته(1) وكانت الدنيا كأنما نسيت أنه فيها، فتركت له روحه صافية منطلقة تتطعم الحياة غير مستقرة في شيء، كما يتطعم النسيم رائحته من ورق الزهر فهو يتسحب عليه ولا يستقر فيه ولو أنه ورق الزهر.(2) وما زالت روح هذا الرجل مني منذ عرفته كأنها نضّاحة عطر تمجّ رشاشها على حياتي روحا وعبيرا وندى؛(3) وكأن الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ما حوله ابتساما وطفولة ورقة(4) ولو أن أحدا خُلق من عيني الطفل الضاحكتين لكان هو "الشيخ

علي" رحمه الله؛ على أنه كان رجلا من سوسه القوة، معصوبا متكدسا يملأ جلده جذل من أجذال الشجر.(5)

ASAH {40}

ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خُلق دميما نافرا على أبشع ما نتصوّره من القبح، لكان كل نساء الدنيا جميلات،(1) إذ يألف الطبع الإنساني تلك الصورة الواحدة، ويتقرّر بها الذوق في الجمال، وتستمرّ بها العادة،(2) فلا يستبين وجه من وجه آخر في صفة، ولا يخالف مذهب مذهبا في حالة.(3) ولكن هذا الإنسان كُتب عليه الشقاء، فخُلق وخُلق معه ما يطغيه وما يستفزّه وما يخرجه عن طوقه، كما خُلق له ما يزهّده وما يطمئنّ به وما يحصره في إنسانيته.(4) فالجميلات والقبيحات كلّهنّ سواء في أنهنّ نساء هذه الإنسانية، لا تقصّر في ذلك واحدة عن واحدة، وإنما يتفاوتن في أسباب الشقاء الإنساني الذي يبتلي الرجل بالمرأة ويمتحن المرأة بالرجل.(5)

ASAH {41}

ولو سما عقل الرجل إلى الغاية العليا من كماله، لرأى المرأة الجميلة الفاتنة في نصف جمال المرأة القبيحة،(1) ولبانت الواحدة عنده من الأخرى بأن

الدميمة مهيأة في نفسها لمعالي الأخلاق والجميلة مهيأة لسفسافها،(2) ولرأى مع هذه بعض طباعها ونزغاتها شرّا مما تقدّم بها من جمال وجهها، ومع تلك من أكثر طباعها وصفاتها خيرا مما قصّر بها من حسن صورتها (3) بيد أن من شقوة الطبع الإنساني أنه سخط القبح فأحاله فسادا، وعبد الجمال فأحاله فسادا من نوع آخر؛(4) إذ كان في نفرته وحبه لا يعتبر المنافع والحقائق، ولكن الأهواء والشهوات.(5) والمنفعة والحقيقة كلتاهما لا تكون إلا في قيودها،(6) أما الأهواء والشهوات فهي دائما لا تقع إلا متخطّية حدود العقل، إما إلى النقص وإما إلى الزيادة،(7) ولا تغري بشيء إلا أوقعت به السوء، إذ لا يستوي في القصد ما خرج عن الحقيقة وما هو مقيّد بالحقيقة.(8)

ASAH {42}

يا أيام الشباب! أنتِ وحدكِ نور الحياة، لأنكِ منذ الفجر ، وأنتِ وحدكِ نهار العمر، لأنكِ إلى أن تصفّر الشمس،(1) وليس وراءكِ إلا كآبة الليل تتقدم ليلها باسمة في شفق المغرب!(2) يا أيام الصبا! أنتِ وحدكِ الحب، لأن فيكِ ما في العيون الحبيبات، أشخاصا روحية ظاهرة بمعانيها الفتانة،(3) فهي تلقي أشعة الجمال على كل ما تنظر إليه.(4) يا أيام الرجولة الأولى! إن في زمنكِ وحده تحلّ السعادة في العقل،(5) إذ يكون العقل في عهدكِ ما يكون الطفل في عهده : لغته تجري من معاني الدموع

والابتسام والضحك،(6) ولا يستدير به إلا الأفواه الحبيبة التي تقبّله أكثر مما تزجره، وحتى لو ضُرب لكان الضرب سببا من أسباب تقبيله فيما بعد...!(7) يا أيام الشباب ! أنتِ وحدكِ العمر، ومن بعد الشباب كل شيء يكون ففيه من الماضي فعل مستتر تقديره : كان!(8)

ASAH {43}

يرحمكَ الله يا صديقي الكريم، تركتَنا مصعدا إلى الله في سلم كانت الأولى من درجاتها عتبة هذا البيت في مصر، وكانت الأخرى تلك العتبة الطاهرة من بيت الله في مكة.(1) وذهبتَ عنا وما علمنا أنكَ طائر يغطي تحت ريشه سرّ الجاذبية العليا.(2) واستودعتَنا الله واستودعناكَ فاشتبكتْ دموع في دموع،(3) وما حسبنا أنّ أرواحنا تقيم من ذلك مناحتها قبل الفراق الأبدي.(4) وخاطبناك عند البين وخاطبتَنا، وما عرفنا أن السماء كانت وقتئذٍ تكلم الأرض من شفتيكَ بألفاظ لها ما بعدها.(5) ونظرتَ إلينا طويلا تلك النظرة التي لا تكون إلا ممن يعرف حتى لا ينكر شيئا، أو ممن ينكر حتى لا يعرف شيئا،(6) فإذا أنتَ تنكر من أعماق الأزل في تراب هذا العالم ولحن لا ندري.(7) وسألنا الله أن يردّكَ علينا أيها العزيز،(8) فأثبتَّ لنا أنكَ من أعزّ ما في الحياة حتى سقط دونكَ الأمل فلا يتمثّلكَ إلا الفكر وحده.(9)

ASAH {44}

إن الحقيقة لا تسأل كيف يحيا الحي، ولكن كيف يموت؛(1) ولا تتعرف ما قدرته على الإقامة، ولكن ما قدرته على الرحيل،(2) ولا تبالي ما قوته على الرسوخ كالجبل، ولكن ما قوته على الوثوب كالطائر!(3) فهناك بين حدود الدنيا وحدود الآخرة موضع هاوٍ لا يتخطاه إلا ذو جناحين قد اشتد كل منهما ووفى.(4) وهناك متى انتهى الإنسان وحد عقله وضميره قد امتدّا من جانبيه كالجناحين،(5) ورأى كل عمل من أعمالهما – في السيئة والحسنة – إما ريشة قد نسلها من جناحه، وإما ريشة قد أنبتها فيه.(6) القدرة على جو السماء في جناح الطائر وفي ريش هذا الجناح وفي قوة هذا الريش؛(7) والقدرة على السماء نفسها في عمل الإنسان وقيمة هذا العمل وصحة هذه القيمة.(8)

ASAH {45}

لسنا نبكي عليك أيها العزيز، وإنما نبكي على أنفسنا؛(1) فإن ما أمامنا لا يمكن أن يكون دنيا غير الدنيا يُفتح لها تاريخ غير التاريخ والحقيقة التي ضمتها ملايين "المجلدات" المحفوظة في القبور،(2) هي هي بعينها لن تتغير ولن تتبدل،(3) فإذا بكينا الميت فما بكينا ذهابه عنا، ولكنا نبكي لبقائنا بدونه؛(4) كما اجتمع نفر من الغرباء في البلد النائي فيُحترم أحدهم فما

يرونه إلا معنى من أنسهم قد زال، وركنا من قولهم قد مال، وجانبا من نظامهم قد أفسده الاختلال!(5) وما دام في الأرض بأك على ميت(6) فالأرض دار الغربة لكل من عليها،(7) وهي لن تكون وطنا لمن سيفارقها إلا إذا عُدّ بطن الأم وطنا لابنها.(8) من وطن الأشهر المعدودة ينحدر الإنسان إلى وطن السنين المعدودة؛(9) أما الأزل والخلود والوطن الإنساني الكبير فهناك هناك حيث لا تساوي كرة الأرض بما فيها أكثر مما تساويه ذرّة من التراب تصعد أو تهبط.(10) وهذا الذي نكرهه عقلا من أمر الدنيا الذي نرانا مضطرين إلى أن نعقله كرها شئنا أو أبينا.(11)

***ASAH* {46}**

نظرتُ إلى عينيه ذات مرة فخُيّل إليّ أن فيهما رهبة الأسد حين يجلي بنظرة كبريائه ليدلّ على أنه الأسد لا غيره،(1) فمددتُ النظر إليهما، فإذا روعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا،(2) وإذا أنا ألمح فيهما ذلك الشعاع الغريب الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السرّ الكامن في المعقول والسرّ الكامن في العقل؛ وكأنه استشعر ذلك فتبسّم،(3) فكان لنظرته جلال سماوي رحيم أشرق على نفسي كما تشرق على روح الطفل ابتسامة أصله الإنساني.(4) كان منطويا على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها في عينيه وينتشر على ما حوله،(5) فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع الرجل ولكن مع النفس العالية التي هي فيه؛(6) وكان أعظم

هيبة من الملوك؛ لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب والأسلحة وكثير من ضروب التوقير والتعظيم.(7) أما الشيخ فكنتَ تراه حيث رأيتَه كالمحراب حيث يكون: لا يقف عنده إلا من وقف ليتخشّع،(8) وما ذكرتُه إلا ذكرتُ قول القائل: في هذه الصورة الآدمية آدم والملائكة له ساجدون!(9)

ASAH {47}

كان هذا الإمام الفذّ في قوة من ربه كقوّة الجبل، يحمل ما يحمل ولا يتلوّى؛(1) وفي سعة من طبعه كاستفاضة البحر: يغمر ما يغمر ولا يتغير؛(2) وفي صراحة من نفسه كاستطارة النهار: يطلع كما يطلع ولا يخفى؛(3) فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء،(4) وهو جسم لكنه عضلة من عضلات الطبيعة،(5) وهو إنسان لكنه حقيقة من حقائق الكون.(6) يصفه الناس بأنه الرجل الحكيم الذي أُتيَ سرّ الحكمة لينبغ به،(7) ويصفه التاريخ بأنه الحياة المجدّدة التي وُهبت سرّ العظمة لتعمل لها؛(8) وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفسر الذي اتصل به طرفُ السرّ الأعلى ليتكلم عنه وليعمل له ولينبغ فيه.(9)

كذلك توحي إليّ روح الشيخ.(1) أنتَ يا هذا إن أحببتَ امرأة فهي كما تثير كل ما فيكَ من الكمال تنبّه كل ما فيكَ من النقص،(2) بيد أنها تجعل هذا النقص علويا وهو أفسدُ له،(3) كالزوبعة إذ ترتفع من الأرض خلقا ماردا من الغبار ملتفّا بالنور ذاهبا إلى السماء، فيكون ارتفاع الغبار شرّا طائرا لم يكن في الغبار الساكن... (4) أفتحسب أن حبكَ إياها هو الحب ؟(5) كلا بل هو بادئ الأمر حبكَ أن تُعجَب بكَ،(6) ثم يزيد فإذا هو الحب أن تميل إليكَ،(7) ثم يبلغ فإذا هو حبكَ أن تخضع لكَ؛(8) هذه ثلاث كلهنّ مَفسدة،(9) فإن هي أدّت في رجل واحد من الإنسان إلى فضيلة واحدة أدّت إلى ألف رذيلة في ألف رجل من هذا الحيوان. (10)كل شيء يمكنكَ أن تضع ضميرك في أوله فتمضي فيه على بصيرة، إلا هذا الحب؛(11) فإن ضميركَ لا يأتي موضعه فيه إلا آخرا؛(12) فإذا أنتَ أردتَ أن يحكم قلبكَ على من تحبها، وأن تأخذ عليها حكم قلبها، فإنما تريد بنفسكَ الألم لا الحب،(13) تريد أن تستوحي الدموع وتخرج منها كلاما يبكي،(14) تريد أن تزدرع شجرة الجنون التي ينبت فيها زهر الشعرا... (15) وهذا لا يسمى حبا لحبيبة، ولا يؤمَن إلا على كبار الحكماء، كما لا يؤمَن فحص الآلة المهلكة... إلا على كبار العلماء والمخترعين!(16)

من أعجب الأمور أن الصفات التي يُعدّ بها الإنسان إنسانا تخضع كلـــها أحيانا لصفة واحدة من تلك الصفات التي يُعدّ بها الإنسان حيوانا،(1) فإنْ خدعكَ بائع مثلا في دراهمَ معدودات، لا تُمضِ الأمر على أنه خدعـكَ، بل تَعرف أنه غشّكَ،(2) ثم لا تَرى أنه غشّـــكَ، بـــل ازدراكَ،(3) ثم لا تَقول إنه ازدراكَ، بل تهزّأ بكَ؛(4) وهذه حركة للنفس في اندفاعـــها إذا تُركتْ تندفع وتُركتْ المعاني الغضبية تخوض في دمها.(5) ومن ثمّ فـــلا يكون البائع في رأي نفسكَ قد سلبكَ بعض الدراهم، بل شيئا من القـــوة التي بها حولُكَ وحيلتكَ، ومن الذكاء الذي تُعامل الناس عليه؛(6) وسلبكَ بعض الشأن الذي يجعلكَ رجلا ذا بصر ومعرفة؛(7) وعلى قدر ما يتحرّك من ذلك في نفسكَ يتحرّك من الغيظ والحقد إن كنـــتَ رجـــلا داهيـــة ذكيا،(8) وبخاصة إذا رأيتَ البائع لا يبالي أن تَعرف أنه تغفّلكَ، بل يجعل من همّه أن تَعرف ذلك؛(9) فلا تعود الدراهم أشياء كما هي في نفســـها من ضعف الخطر والقيمة، بل كما هي في نفسكَ ممـــا وُضـــع أمرهـــا عليه؛(10) فلا تنحطّ قيمتها إلا بانحطاط قيمة النفس، وتلتحـــق بمعـــاني القهر والغلبة وما كانت إلا من بعض معاني الربح والخسارة.(11)

وفي النفس الإنسانية لا تمرض الحقيقة إلاّ من سوء التخيل فيها،(1) كـأن نعمة الخيال إنما وُهبت للإنسان لتخرجه من حدود الحقـائق فيفسـدها ويفسد آثارها فيه، فتنقلب من مادة شقائه وهي مادة سـعادته!... (2) فالخيال هو القوة التي يثبت بها الإنسان إلى المجهول،(3) وهو نفسه القـوة التي يسقط بها إذا تقاصرت الوثبة أو طاشت وقلمـا جـاءت إلا مـن هاتين،(4) والخيال هو العنصر الذي تمزجه بالحقائق ليحدث فيها التنويـع فيخرج ثلاث حقائق من اثنتين،(5) وهو نفسه العنصر الذي يسـتخرج الضرر الكامن في هذه الحقائق متى أسرف عليها فيخـرج مـن المنفعـة الواحدة مضرّتين: للحقيقة وللإنسان معا!(6) فالمنهوم الذي ينتهي بطنـه ولا تنتهي نفسه،(7) والحريص الذي يفرغ عمره ولا يفـرغ أملـه،(8) والفاجر الذي تذهب مروءته ولا تذهب لذته(9) والمُدمن الذي يسـقط عقله وخياله لا يزال يعلو،(10) والمقامر الذي لا ينفك يطمع في الغـنى وهو فقير حتى من الفقر... (11) كل واحد من هؤلاء مريـض بمـرض خيالي واحد،(12) أما الذي هو مريض بشيء من كل شيء، فهو العاشق المريض بامرأة يهواها!(13)